﴿وَرَبُّكَ يَخۡلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخۡتَارُۗ مَا كَانَ لَهُمُ ٱلۡخِيَرَةُۚ سُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ٦٨ وَرَبُّكَ يَعۡلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمۡ وَمَا يُعۡلِنُونَ ٦٩﴾ [القصص: 68 - 69]

❁ مُناسَبَةُ الآيَتَيْنِ لِما قَبْلَهُما:

اللهُ هو صاحبُ الاختيارِ المطلقِ في تعيينِ الشّفاعِ واصطفاءِ الأنبياء

بعد توبيخِ اللّهِ المشركينَ على اتّخاذ الشّركاء، ودعوتهم للشّفاعةِ والنّصرة؛ أبانَ تعالى أنّه هو صاحبُ الاختيارِ المطلق في تعيينِ الشّفعاء لا المشركون، وكذا في اصطفاءِ بعض العبادِ للرّسالة والنّبوّة، وتمييزهم عن غيرهم؛ لأنّه العالم بالخفايا والظّواهر، لا اختيارِ المشركين جهلًا وغباءً وضلالًا.

الأمرُ آيلٌ إلى حِكْمَةِ اللهِ تعالى في خَلْقِ قُلوبٍ مُنْفَتِحَةٍ لِلاهْتِداءِ وقُلوبٍ قاسيَةٍ صَمّاء

بعد أنْ حَلَّل البيانُ القرآنيُّ حالَ المشركين بذكرِ حالِ الفريق المقابل؛ وهو فريقُ المؤمنين على طريقةِ الاعتراض؛ تمييزًا للأحوالِ بذكرِ أضدادها بقوله: ﴿فَأَمَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَعَسَىٰٓ أَن يَكُونَ مِنَ ٱلۡمُفۡلِحِينَ﴾؛ تمّمَ هذا الاعتراض بقوله: ﴿وَرَبُّكَ يَخۡلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخۡتَارُۗ﴾ ببيانِ أنّ الأمرَ آيلٌ إلى التّفويضِ إلى حِكْمَةِ اللّه تعالى في خَلْقِ قُلوبٍ مُنْفَتِحَةٍ لِلاهْتِداءِ وقُلوبٍ غَيْرِ مُنْفَتِحَةٍ لَهُ[1].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿يُعۡلِنُونَ﴾: أصلُ (علن) يدُلُّ على إظهارِ الشَّيءِ والإشارةِ إليه وظُهوره[2]، يُقال: عَلَنَ الأمر يعلُنُ عُلونًا وعلانيةً، أي: شاعَ وظَهَر[3]، ولا يُقال أعْلَنَ إلّا للأمْرِ والكلام؛ واستَعْلَنَ يجوز في كلِّ شَيْءٍ، ومَعْناهما: أظْهَرَ[4]، والعَلانيَةُ: خلاف السرّ[5]، وأكثر ما يُقال

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 164.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (علن).
(3) الخليل، العين، والأزهريّ، تهذيب اللغة، وابن فارس، مقاييس اللغة: (علن).
(4) ابن عباد، المحيط: (علن).
(5) الجوهريّ، الصّحاح: (علن).

ذلك في المعاني دون الأعيان[1]. والمرادُ بالإعلان في الآية: الإظهار، أي: ما يظهرونه من الأفعال الخبيثة والطَّعن في الإسلام.

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

انـفـرادُ اللـهِ سبحانه بالإرادةِ المُطْلَقةِ؛ فلا مُعقِّبَ لحُكْمِه، ولا رادَّ لقضائه

يُبيِّنُ الله تعالى أنَّ مَرَدَّ الأمورِ جميعِها إليه، وأنَّه هو صاحبُ الخَلقِ والأمرِ، فيقولُ: وربُّك - يا مُحمَّدُ ﷺ - يخلقُ ما يشاء من خلقه بقدرته، ويختارُ منهم من يشاء بحكمته لطاعتِه وحملِ رسالته، على مقتضى عِلمه باستعدادهم لذلك، فليس للنّاسِ أن يَختاروا على اللهِ أن يَفعَلَ ما يَشاؤونَ، بل اللهُ يختارُ وحْدَه ما يَشاءُ، تَنزَّهَ اللهُ وتقدَّسَ وارتفَعَ عن شِركِ المُشرِكينَ وكَذِبهم عليه؛ فهو وحْدَه المتفرِّدُ بالخَلقِ والاختيارِ دونَ آلهتِهم الَّتي لا تَخلُقُ ولا تَختارُ شَيئًا[2].

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

معنى (الواو) في جملة ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ﴾:

فـي الـعـطـفِ تـفـويـضٌ إلى حكمةِ الله في خـلـقِ قـلـوبٍ مـنـفـتـحـةٍ للاهتداء وأخرى قاسيةٍ صمّاء

(الواو) في قوله تعالى: ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ﴾ عاطفةٌ، والمعطوفُ عليه ما قبله، أي لمّا كان كأنَّه قيل: ما لأهلِ القِسْمِ الأولِ - وهم المشركون - لا يَتَوَخَّوْنَ النَّجا من ضيقِ ذلك البَلا، كانَ الجواب: ربُّك منعهم من ذلك. أو: لِما لم يقطعْ سبحانه لأهلِ القِسْمِ الثاني - وهم المؤمنون - بالفلاح، كما قطعَ لأهل القسم الأول بالشّقاء؟ وكانَ الجواب: إنّ ربَّك لا يجبُ عليه شيء؛ عَطَفَ عليه - إشارةً إلى هذا الجواب - قولَه: ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُ﴾[3]. أو أنْ يكون ظاهرُ عطفِ الآية على ما قبلها؛ كونَها من تمامِ الاعتراض الذي هو جملة ﴿فَأَمَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا﴾، أي أنّ الأمرَ آيلٌ إلى التّفويض

(1) الرّاغب، المفردات، ص: 582.

(2) ابن جرير، جامع البيان: 18/ 303، والقرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 13/ 307، ومجمع البحوث، التّفسير الوسيط: 7/ 1800.

(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 14/ 339.

إلى حكمةِ الله تعالى في خلقِ قلوبٍ مُنفتحةٍ للاهتداء ولو بمراحل، وقلوبٍ غيرِ منفتحةٍ له، فهي قاسيةٌ صمّاء، وأنّه الذي اختارَ فريقًا على فريق[1].

دلالة التّعبير بالرّبوبيَّة دون الأُلوهيَّة:

للمُحسنِ في خلقه وللقادرِ في مُلكه أنْ يخصَّ من شاءَ بما شاءَ

في تعبيرِ البيانِ القرآنيّ بلفظِ الرّبوبيّةِ في قوله: ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ﴾ لفتةٌ مهمّة؛ إذْ في الرّبوبيّة ما لا يخفى من: معنى الرَّحمة والتَّربية والإشعارِ باللُّطف[2]، ومعنى الإحسان والعطاء؛ فهو مُحسنٌ بهذا الخَلْق سبحانه، ومعنى الملك، فهو المالكُ المطلقُ المنزّهُ عن النّفعِ والضّرِّ - فله أنْ يخصَّ من شاءَ بما شاء[3]. وهذه المعاني للرّبوبيّة تناسبُ المقصودَ من الآية، وهو أنّ الاختيارَ له وحده سبحانه، وأنَّه لا يختارُ لعباده إلا ما فيه الخير لهم، فهو أعلمُ بهم وبما يُصلحهم، إضافةً إلى أنّ عطاءَ الرُّبوبيّة - وهو هنا اختيارُ ما ينفعهم - يشملُ كلّ النّاس مؤمنهم وكافرهم، أمّا عطاءُ الألوهيّة فهو خاصٌّ بالمؤمنين الذين يتّبعون منهجَه سبحانه[4].

دلالة الإضافة في ﴿وَرَبُّكَ﴾:

عنايةُ اللهِ وإحسانُه إلى النّبيّ ﷺ اقتضتْ اختيارَه وتشريفَه بالرّسالة

في ذِكْرِ الله تعالى بعنوانِ كونِه ربًّا للنَّبيّ ﷺ في قوله تعالى: ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُ﴾؛ دلالةٌ على عنايةِ الله ورعايته وإحسانِه بالنَّبيّ ﷺ على كلّ حالٍ، آمنَ مَنْ آمنَ وكفرَ مَنْ كفرَ، أي هو المحسنُ إليك، بموافقةِ من وافقكَ، ومخالفةِ من خالفك؛ لحِكَمٍ كِبارٍ، دقّتْ عن فَهْمِ أكثرِ الأفكارِ[5]. وللإشارةِ إلى تشريفه، وأنّ اللّه اختارَه؛ لأنّه ربُّه وخالقُه فهو قدْ علم استعدادَه لقَبولِ رسالته[6].

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 164.
(2) الآلوسيّ، روح المعاني: 6/ 136.
(3) النيّسابوري، غرائب القرآن ورغائب الفرقان: 5/ 355.
(4) الخفاجيّ، عناية القاضي وكفاية الراضي: 2/ 218.
(5) البقاعيّ، نظم الدّرر: 14/ 339.
(6) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 165.

كما أنّ في هذه الإضافة إظهارَ اللُّطفِ بالنّبيّ ﷺ والشَّفقةِ عليه، وخاصّة أنَّ سببَ نزول الآية هو رفضُ المشركين لرسالته، وطَلَبُهم رجلًا من القريتين؛ مكّة والطّائف.

نكتة تقديم الاسم على الخبر الفعلي:

تقديمُ المسند إليه (ربّك) على خبره الفعلي ﴿يَخۡلُقُ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَرَبُّكَ يَخۡلُقُ﴾ يفيدُ القَصْرَ والحَصْرَ إنْ لوحظ سببُ النّزول، وهو أنّ المشركين أجابوا المرسلين بقولهم فيما حكاه اللّهُ عنهم ﴿وَقَالُواْ لَوۡلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانُ عَلَىٰ رَجُلٖ مِّنَ ٱلۡقَرۡيَتَيۡنِ عَظِيمٖ ٣١﴾ [الزخرف: 31] يقصدون الوليدَ بن المغيرة من أهل مكّة، وعروةَ بن مسعود الثَّقفي من أهل الطّائف، فأنزل الله الآية، والمعنى: وربُّك وحده الذي يخلق، وربُّك وحده الذي يختارُ الرُّسلَ لا أنتم الذين تختارون من يُرسَلُ إليكم[1].

انـفـرادُه تعالى بالخلقِ والتّقدير والاختـيـار؛ فلا نَظيرَ لَهُ في ذَلِكَ

كما أنَّ التّقديم يحقّق الخبرَ، ويقوّي الحُكمَ، ويؤكّدُ المعنى في بيانِ ألّا عجبَ مع قدرةِ القادر، فهو لا يفتقرُ لأسباب؛ وذلك لتكرارِ الإسناد؛ فكأنَّ الحُكمَ هنا ذُكر مرّتين؛ مرّةً حين أُسندَ الفعلُ ﴿يَخۡلُقُ﴾ إلى المبتدأ، ومرّةً حين أُسندَ إلى ضميره العائد إلى المبتدأ (ربّك)، ولو تأخّرَ المسندُ إليه فقال: (ويخلق ربك) لما تحقّق هذا التكرار.

دلالة التّعبير بالخلق وصياغته مضارِعًا:

في استعمالِ لفظ الخَلْق في قوله تعالى: ﴿وَرَبُّكَ يَخۡلُقُ﴾ دلالةٌ على أنّه لا عجبَ مع قدرةِ القادر، فهو لا يفتقرُ في خلقٍ لأسبابٍ؛ لأنّ الخلقَ إبداعُ الشّيء من غيرِ أصلٍ ولا احتذاءٍ، وليس هذا إلا لله تعالى[2]، وهذا دليلٌ على كمالِ قدرته. وقد جاء الفعلُ بصيغةِ

الإبـــداعُ مـن الـعـــدمِ إلى الـوجـودِ يتفرّدُ الـلـهُ بـالـقـدرةِ عليه

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 164.

(2) الرّاغب، المفردات، والسّمين الحلبي، عمدة الحفاظ، وابن منظور، لسان العرب: (خلق)، والفيروزآبادي، بصائر ذوي التّمييز: 2/ 566.

المضارعة التي تدلّ على التّجدّدِ والحدوث؛ لإفادةِ تجدّد الخلقِ، فهو خَلْقٌ لا ينقطعُ، فهو خالقُ كلِّ شيءٍ سبحانه، قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ وَكِيلٞ ٦٢﴾ [الزمر: 62].

معنى ﴿مَا﴾ في جملة ﴿مَا يَشَآءُ﴾:

من كمالِ قدرةِ الله كونُه خالقَ كلّ شيء

﴿مَا﴾ في قوله تعالى: ﴿وَرَبُّكَ يَخۡلُقُ مَا يَشَآءُ﴾ اسمٌ موصولٌ في محلِّ نصْبِ مفعولٍ به[1]، يفيد العموم[2]، وصلتُه جملةُ ﴿يَشَآءُ﴾، والضّميرُ في ﴿يَشَآءُ﴾ عائدٌ إلى الله، والمعنى: وربُّك يخلقُ كلّ شيء يشاءُ اللّهُ أن يخلقه، قال تعالى: ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمۡۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖ فَٱعۡبُدُوهُۚ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ وَكِيلٞ ١٠٢﴾ [الأنعام: 102].

وتَحْتَمِلُ أنْ تكون بمعنى (مَنْ)، والمعنى: يخلقُ مَنْ يشاء، أو بمعنى (كيف) فتكون معمول ﴿يَشَآءُ﴾، والمعنى: يخلقُ كيف يشاء[3].

نكتةُ حذف مفعول المشيئة:

وجـودُ المشيئةِ يلزمُ منه وجودَ المُشاء

حذفَ البيانُ القرآنيّ مفعولَ المشيئة في قوله تعالى: ﴿وَرَبُّكَ يَخۡلُقُ مَا يَشَآءُ﴾؛ للإيجاز، وإنّما كَثُر حذْفُ مفعول المشيئة دون سائر الأفعال؛ لأنّه يلزمُ من وجودِ المشيئة وجودَ المُشاء، والتّقدير: (وربُّكَ يَخْلُقُ ما يَشاء أنْ يخلقَه).

نكتة التّعبير بالمشيئة دون الإرادة:

مشيئةُ اللهِ في الخلقِ تقتضي وجوده

عبر البيانُ القرآنيُّ بلفظ المشيئة دون الإرادة في قوله تعالى: ﴿وَرَبُّكَ يَخۡلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخۡتَارُۗ﴾؛ لكون المشيئةِ أنسبَ للسّياق الذي ورد فيه لفظُ الخلق والاختيار؛ إذ المشيئةُ مِن اللهِ تقتضي وجودَ الشّيء، وأمّا الإرادة منه لا تقتضي وجود المُراد[4].

(1) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 7/ 365.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 166.
(3) المنتجب الهمذاني، الكتاب الفريد في إعراب القرآن المجيد: 5/ 147.
(4) الرّاغب، المفردات، والسّمين الحلبيّ، عمدة الحفاظ: (شيأ).

دلالة المضارعة في ﴿يَشَآءُ﴾:

خـلـقُ الـلـه مستمرٌّ ومتجدّدٌ يعكسُ قدرةَ اللهِ المطلقة على الخلقِ في أيّ وقتٍ يشاء

التَّعبيرُ بصيغةِ المضارعِ في ﴿يَشَآءُ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَرَبُّكَ يَخۡلُقُ مَا يَشَآءُ﴾ يدلُّ على أنَّ خلقَ الله مستمرٌّ ومتجدّدٌ، وليس محصورًا في زمنٍ معينٍ؛ فاللهُ يخلقُ في كلّ لحظةٍ ما يشاءُ من مخلوقاتٍ وأحداث، وهذا يعكسُ قدرةَ اللهِ المطلقة على الخلقِ في أيّ وقتٍ يشاء، ممّا يعزّزُ مفهومَ القدرةِ الإلهيّة غير المحدودة. كما أنّ التَّعبير بالمضارعة يجعلُ النّص القرآني متفاعلًا مع الزّمن، حيث يشعرُ القارئ بأنَّ هذه القدرة الإلهيّة حاضرةٌ ومستمرةٌ في كلِّ لحظة.

معنى (الواو) في قوله ﴿وَيَخۡتَارُۗ﴾:

من يملكُ الخَلْقَ يملكُ الاختيار

الواو في قوله تعالى: ﴿وَيَخۡتَارُۗ﴾ عاطفةٌ، والمعطوفُ عليه قوله: ﴿وَرَبُّكَ يَخۡلُقُ مَا يَشَآءُ﴾ بجامعِ كون الله تعالى المنفردَ بالخلقِ والاختيارِ دون منازعٍ ولا معقّبٍ، وكونه هو الخالقُ، فهو أعلمُ بمخلوقاته، وبما يُصلحهم ويصلحُ منهم لأداء ما يكلّفهم به من تبليغِ الرِّسالة، قال تعالى: ﴿أَلَا يَعۡلَمُ مَنۡ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلۡخَبِيرُ ١٤﴾ [الملك: 14].

نكتة تقديم الخلق على الاختيار:

مَـنْ ليس إليه شيءٌ من الخَلْقِ فما له وللاختيار

الابْتِداءُ بقولِه: ﴿وَرَبُّكَ يَخۡلُقُ مَا يَشَآءُ﴾ تَمهيدٌ للمَقصودِ، وهو قولُه: ﴿وَيَخۡتَارُۗ مَا كَانَ لَهُمُ ٱلۡخِيَرَةُۚ﴾ أيْ: كما أنَّ الخَلْقَ مِنْ خَصائصِه، فكذلكَ الاخْتيار، فهو أعلمُ بمخلوقاتِه، وأعلمُ بما ينفعُهم، وأعلمُ حيث يجعلُ رسالاتِه[1].

دلالة التّعبير بمفردة الاختيار وصياغته مضارعًا:

عبَّرَ البيانُ القرآنيُّ بلفظِ الاختيارِ دون غيره كالانتقاءِ والاصطفاء والاجتباء؛ لِما يتضمّنُه هذا اللفظُ من الإشارة إلى أنّ ما انتقاهُ اللهُ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 165.

ما انتقاهُ اللهُ واجتباهُ هو الخيرُ كلّه لحكمتهِ المطلقةِ وعلمِه المحيط

واجتباه هو الخيرُ والصّلاح، وهو الأفضلُ من غيره؛ لأنَّ الاختيارَ في اللغة طلبُ ما هو خيرٌ وفعله[1]، ويأتي بمعنى التّفضيل[2]، وهذا فيه مزيدُ تطمينٍ وتسليةٍ للنّبيِّ ﷺ، وتعريضٍ وتبكيتٍ للمشركين؛ إذ يُعرضون عن الخير الذي اختاره الله لهم مِنَ الإيمانِ وإرسالِ الرّسل. كما أنَّ التَّعبير بالاختيار يتناسبُ مع السّياق الذي ورد فيه لفظُ ﴿ٱلۡخِيَرَةُۚ﴾ سواء كان بمعنى الاختيار أو الخير، والذي يتحدث كذلك عن كمالِ قدرةِ اللهِ وحكمتِه المطلقةِ، واتصافِه بالعطاء والإنعام والتّربية في ﴿وَرَبُّكَ﴾، وبصفات الجلال والجمال والكمال وتنزّهه عن كلّ نقص في خلقه واختياره في ﴿سُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ وَتَعَٰلَىٰ﴾، فهو يختارُ سبحانَه الأفضلَ والأصلحَ في كلّ شيءٍ.

الخيرُ مستمرٌّ ومتجدّدٌ مِن الله سبحانه

وقد صاغَ فعْلَ الاختيارِ بصيغة المضارع؛ للدّلالةِ على أنّ الخيرَ من الله سبحانه مستمرٌّ ومتجدّدٌ، لا ينفكُّ عن كلِّ ما يختارُه لعبادِه.

نكتة حذف مفعول ﴿وَيَخۡتَارُۗ﴾:

إذا تساوى الذِّكْرُ والحذفُ فالحذفُ أبلغ

حُذفَ مفعول ﴿وَيَخۡتَارُۗ﴾؛ اختصارًا؛ لدلالةِ ما قبله عليه، والتّقدير: (وربُّك يخلقُ ما يشاء أنْ يخلقه، ويختارُ ما يشاءُ اختياره من غير إيجابٍ عليه، ولا منعٍ له أصلًا)[3]، وهذا على الوقف على ﴿وَيَخۡتَارُۗ﴾ وعَدِّ ﴿مَا﴾ نافيةً، لا موصولةً في محلِّ مفعول به للفعل ﴿وَيَخۡتَارُۗ﴾.

معاني ﴿مَا﴾ في جملة ﴿مَا كَانَ لَهُمُ ٱلۡخِيَرَةُۚ﴾:

تحتمل ﴿مَا﴾ في قوله تعالى: ﴿وَرَبُّكَ يَخۡلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخۡتَارُۗ مَا كَانَ لَهُمُ ٱلۡخِيَرَةُۚ﴾ وجهين:

نفيُ اختيارِ الخلقِ تقريرٌ لاختيارِ الحقِّ سبحانَه

الأول: أنْ تكون نافيةً، والخيَرةُ من التَّخَيّر، وهي بمعنى الاختيار،

(1) الرّاغب، المفردات، والزّبيدي، تاج العروس، والمعجم الوسيط: (خير).
(2) ابن منظور، لسان العرب: (خير).
(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 7/ 22.

والمعنى: ليس لأحدٍ من خلقه أنْ يختارَ عليه[1]، فنفيُ اختيارِ الخلقِ تقريرٌ لاختيارِ الحقّ[2]، ويكون تمامُ الوقف على قوله: ﴿وَيَخۡتَارُۗ﴾، وهو الأرجح[3]؛ لأنّ المقامَ في بيانِ انفراده تعالى بالخلق والتّقدير والاختيار، وأنَّه لا نظيرَ له في ذلك[4].

اختيارُ اللهِ للعبادِ لا يكونُ إلا لِما فيه الخيرُ لهم

الثّاني: أنْ تكونَ موصولةً؛ مفعولًا لفعلِ ﴿وَيَخۡتَارُۗ﴾[5]، وعائدُ الموصول مجرور بـ(في)، وهما محذوفان، وأصلُ الكلام: ما كان لهم فيه الخيَرة، فحُذف (فيه)؛ لأنَّه مفهومٌ،"ومعنى الخيَرَةِ على هذا: الخيرُ والمصلحةُ"[6]، والتّقديرُ: (ويختارُ الذي لهم فيه الخيَرة)، أي: يختارُ للعبادِ ما هو خيرٌ لهم وأصلح، وهو أعلمُ بمصالحهم من أنفسهم، فيختارُ لهم من الرّسلِ ما يعلمُ أنّه صالحٌ لهم لا ما يريدونه من رجالهم[7]. وفي الآية إشارةٌ إلى صلاة الاستخارة؛ إذ لا ينبغي لأحدٍ أنْ يُقدمَ على أمرٍ من أمورِ الدّنيا حتى يسألَ اللّهَ الخيرةَ في ذلك.

عِلّة فَصْل ﴿مَا كَانَ لَهُمُ ٱلۡخِيَرَةُۚ﴾:

تأكيدُ قصرِ الاختيارِ على الله وحده فليس لأحدٍ أنْ يختارَ على الله

فَصَلَ البيانُ القرآنيُّ قوله ﴿مَا كَانَ لَهُمُ ٱلۡخِيَرَةُۚ﴾ عمّا قبله - على احتمال أنّ ﴿مَا﴾ نافية -، ولم يربطهما بعاطف؛ لِما بينهما من كمالِ اتّصالٍ؛ إذ جاء قوله ﴿مَا كَانَ لَهُمُ ٱلۡخِيَرَةُۚ﴾ بيانًا لقوله ﴿وَيَخۡتَارُۗ﴾؛ لأنّ معناه أنّ الخيرةَ للّه تعالى في أفعاله، وهو أعلمُ بوجوه الحكمةِ فيها، ليس لأحدٍ من خلقه أنْ يختارَ عليه[8]. أو أنّه تأكيدٌ لمعنى القَصْرِ؛

(1) الزّمخشري، الكشّاف: 3/ 427.
(2) النّسفي، مدارك التّنزيل: 2/ 654.
(3) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 25/ 11.
(4) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 6/ 251.
(5) سيد طنطاوي، التّفسير الوسيط: 10/ 430.
(6) ابن جزي، التّسهيل لعلوم التّنزيل: 2/ 118.
(7) الزّمخشريّ، الكشّاف: 3/ 427، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 165.
(8) الزّمخشري، الكشّاف: 3/ 427.

لِئَلّا يُتَوَهَّمَ أنَّ الجُملةَ قَبْلَه تفيدُ تقوّي الحكم فقط[1]، بل تؤكّدُ قصْرَ الاختيار للّه وحدَه، وأنّه ليس لأحدٍ أن يختارَ على اللّه، أو أنْ يعترضَ على اختيارِه وحكمه.

دلالة التّعبير بالكون الماضي ﴿مَا كَانَ لَهُمُ﴾:

المبالغةُ في نفي الخيَرَةِ عن واحدٍ من الخلق تأكيدٌ لكونها للحقّ سبحانه

دلّ التَّعبيرُ بصيغةِ الكون الماضي ﴿مَا كَانَ﴾ في قوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ﴾ على المبالغةِ في نَفْي أنْ يكون لأحدٍ الخيَرَةُ على اللّهِ، أو أنْ يعترضَ على اختياره؛ لأنّ النّفيَ بهذه الصيغة أشدُّ ممّا لو قيلَ: ما لهمُ الخيرَةُ[2]؛ لأنَّ فعْلَ الكونِ يفيدُ الدّوامَ والاستمرارَ، والماضي يدلُّ على التّحقّقِ والوقوعِ.

نكتة تقديم الجارّ والمجرور ﴿لَهُمُ﴾:

الاهتمامُ بتأكيدِ نفي ملكِ المشركين الاختيار على الله

تقديمُ الجارِّ والمجرور ﴿لَهُمُ﴾ في قوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ﴾؛ للاهتمامِ بالمقدَّم، بتسليطِ الضّوءِ على الفكرة الرئيسيّة؛ وهي نفيُ ملكهم للاختيارِ على اللّهِ، أي أنَّ الخيَرةَ ليستْ لهم، أي نفيُ ما يريدونه ويُصِرّون عليه من أنْ تكون لهم الخيَرَةُ في الرّسول المرسَلِ إليهم من قِبَلِ اللّهِ سبحانه.

معنى اللام في ﴿لَهُمُ﴾:

نفيُ المِلْكِ عَن المخلوقين يسلبُهُمُ القدرةَ على الاختيارِ على الله

لام ﴿لَهُمُ﴾ في قوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ﴾ للمِلْكِ، أي: ما كانوا يَمْلِكونَ اختيارًا في المَخلوقاتِ حتَّى يقولوا: ﴿لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴿٣١﴾﴾ [الزخرف: 31]، ونَفْيُ المِلْكِ عنهم مُقابِلٌ لقولِه: ﴿مَا يَشَآءُ﴾؛ لأنّ ﴿مَا يَشَآءُ﴾ يُفيدُ مَعنى مِلْكِ الاخْتيار[3].

دلالة التّعبير بمفردة ﴿ٱلْخِيَرَةُ﴾:

الخيَرَةُ اسمٌ لمصدرِ الاختيار، مثل الطّيَرَةِ اسم لمصدر التَّطَيُّرِ[4]،

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 165، وسيد طنطاوي، التّفسير الوسيط: 10/ 430.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 165.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 165.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 165.

وقد آثرَ البيانُ القرآنيُّ هذا اللفظ للدّلالة على سوءِ حالِ المشركين؛ إذ بالغَ في نفيِ الخيرِ والصّلاح عمّا يطلبونه من أنْ يكونَ الرّسولُ أحدَ رجلين من مكة والطّائف، أو أيّ شيءٍ آخرَ ليس من صلاحياتهم كمخلوقين؛ لأنّ الاختيارَ في اللغة من الخير[1]، والاختيارُ انتقاءُ الأفضل[2]، وهذا لا يستطيعُه إلا من له المِلكُ المطلقُ والعلمُ المحيطُ لا مخلوقٌ ضعيفٌ غارقٌ في الضَّعف والجهل، فاختيارُ اللّهِ تعالى للأفضلِ والأصلحِ لخلقه يتوافقُ مع حكمتهِ المطلقةِ وعلمه الواسع.

في نفيِ الخيَرَةِ عن المشركين منطوقًا إثباتهُا لمن له الملك المطلق والعلمُ المحيط مفهومًا

دلالة تعريف ﴿ٱلۡخِيَرَةُۚ﴾:

لامُ تعريف ﴿ٱلۡخِيَرَةُۚ﴾ في قوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لَهُمُ ٱلۡخِيَرَةُۚ﴾ إمّا أنْ تكون عهديّةً، باعتبار أنّ الخيَرَةَ اسمٌ لمصدر الاختيار، و﴿مَا﴾ نافية، والمعنى: ما كان لهم الاختيارُ المعهودُ بأنّه للّه وحده، كالاختيار في المخلوقات أو الاختيار على اللّه سبحانه؛ لأنّ للعقلاء اختيارًا يُحاسبون بسببه. أو أنْ تكون جنسيّةً تَدُلُّ على العموم، باعتبار أنّ الخيرَة هي الخيُر والمصلحةُ، وأنّ ﴿مَا﴾ موصولية، والمعنى: ويختارُ الذي لهم فيه كلّ خيرٍ وصلاحٍ.

لامُ التّعريف جنسيّةٌ تعمُّ كلَّ خيرٍ وصلاحٍ أو عهديّةٌ تختصّ باختيارٍ ليس للمخلوقِ

علة فصل جملة ﴿سُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ وَتَعَٰلَىٰ﴾:

فُصِلَ قوله تعالى: ﴿سُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشۡرِكُونَ﴾ عمّا قبله؛ لوقوعه استئنافًا ابتدائيًّا؛ لإنشاءِ تَنزيهِ اللّهِ وعُلوِّه على طريقةِ الثَّناءِ عليه بتنَزُّهِه عن كلِّ نَقْصٍ، فهي منقطعةٌ عن التي قبلها في التّركيب والمعنى، وهي مُعترضةٌ بينَ المُتعاطفَيْنِ[3]، تفيدُ مع الثّناءِ على اللّه، وتشنيعِ فعْلِ المشركين - من منازعةِ اللّه بإسناد الخلق إلى غيره، أو في اختيار أنبيائه - توكيدَ كمالِ قدرته في الخَلقِ والاختيارِ، والتّصريحَ بأنّ صنيعَهم هو عينُ الشّركِ المناقضِ للتّوحيد.

منازعةُ اللهِ بإسنادِ الخلقِ إلى غيرِه أو في اختيارِ أنبيائه هو عينُ الشّرك

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (خير).
(2) الزّبيدي، تاج العروس، والمعجم الوسيط: (خير).
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 166.

غرض التّسبيح في قوله ﴿سُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ﴾:

تنزيهُ اللهِ عن أنْ ينازعَه أحدٌ أو يزاحمَ اختيارَه اختيارٌ

تتمثّل غايةُ تسبيح اللّهِ لذاته العليّة في ختام هذه الآية السَّنيَّةِ بقوله: ﴿سُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشۡرِكُونَ﴾ في أمرين:

الأول: التّنزيهُ؛ أي: تنزَّهَ الجامعُ لصفاتِ الكمالِ عن أنْ يختارَ أحدٌ شيئًا لا يريده فيصِلَ إليه، أو يقعَ بوجهٍ عليه[1]، أو تنزَّهَ من أنْ يُشْرَكَ به من الأصنام أو الأنْدادِ التي لا تَخلُقُ ولا تختارُ شيئًا؛ بناءً على أنّ المقامَ في بيان انفرادِ الله بالخلقِ والتّقدير والاختيار، وأنّه لا نظيرَ له في ذلك؛ إذ المشاركةُ توجبُ المساواةَ، ولا مساواةَ بين مَن خَلَقَ وقدّر واختارَ وبين من لا يستطيعُ خلقًا ولا يملكُ تقديرًا ولا اختيارًا[2]. أو تنزَّهَ عن شركهم بالله؛ بناءً على أنّ الدافعَ لهؤلاء المشركين في اقتراحهم واختيارهم وإعراضهم عن اختيار الله هو شركُهم به.

وهذا التَّنَزُّهُ يدلُّ على أنّ غايةَ أمرِهم في ذلك إنّما هو ما امتزجتْ به نفوسُهم من ضلالاتِ شركهم وأهوائِهم وجهلِهم بقدَرِ اللّهِ وحقيقته[3].

إشراكُهم من يضرُّهم بمن يُريدُ لهم كلَّ خيرٍ أمرٌ يستدعي العَجَبَ

والثّاني: التّعجّب مِن إشْراكِهِمْ مَن يضُرُّهم بِمَن يُريدُ لهم كلَّ خيرٍ، ﷻ عن ذلك، وهو عَلى احْتِمالِ كَوْنِ ﴿مَا﴾ فيما تقدّم موصولةً مفعولَ ﴿وَيَخۡتَارُۗ﴾، والمَعْنى: ويختارُ ما كان لهم فيه الخير والصّلاح. أو التّعجّب من اخْتِيارِهِمْ شُرَكاءَهُمُ الَّذينَ أعَدّوهم لِلشَّفاعَةِ، وإقْدامِهِمْ على ما لَمْ يكنْ لهم[4].

نوع الأسلوب في جملة ﴿سُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ وَتَعَٰلَىٰ﴾ وغرضه:

﴿سُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ﴾ في قوله تعالى: ﴿سُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشۡرِكُونَ﴾

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 14/ 341.
(2) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 6/ 251.
(3) القاسميّ، محاسن التّأويل: 13/ 112.
(4) الآلوسيّ، روح المعاني: 10/ 312.

نائبُ مفعولٍ مطلق للفعل (أُسبّحُ)، وأصلُ الكلام: أُسبّحُ اللّه تسبيحًا، ولكنْ حُذفَ عاملُ المفعولِ المطلق؛ لأنّ المصدرَ وهو المفعول المطلق جاءَ بدلًا عنه، ولا يجوزُ الجمعُ بين البدلِ والمُبْدَلِ عنه.

الاحتباكُ حُسْنُ إيجازٍ في التّعبير وغايةٌ في التّأكيدِ على تنزيهِ الله وعلوّه

فالقرآنُ أتى في الجملة الأولى ﴿سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ﴾ بالمصدر ﴿سُبْحَٰنَ﴾؛ ليدلَّ على الفعل، وأتى في الثّانية ﴿وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ بالفعل ﴿وَتَعَٰلَىٰ﴾؛ ليدلَّ على المصدر، أي: تعالى علوًّا، وهذا احتباكٌ يدلُّ على حُسْنِ وجمالِ الإيجازِ في التّعبير، ويحقّقُ تكاملَ المعنى ويعزّزُه، وهو تنزيهُ اللّه وعلوّه.

موقع جملة ﴿سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَتَعَٰلَىٰ﴾ الإعرابيُّ:

اعـتراضٌ مؤكِّدٌ لكمال القدرةِ والاختيار على طريقةِ الثّناء أو التّعجّب

﴿سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ جملةٌ اعتراضيَّةٌ بين جملتين؛ بينَ ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُ ۗ مَا كَانَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ ۚ﴾ و﴿وَرَبُّكَ يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾، جاءت تنزيهًا للّه سبحانه؛ أي: تنَزَّهَ بذاتِه تنزُّهًا خاصًّا به من أنْ ينازعَه أحدٌ في الخلق، أي ألا يستحي هؤلاء الذين يُسندون الخلق لغيره؟ سبحان اللّه!. أو من أنْ يزاحمَ اختيارَه اختيارٌ[1]، أي ألا يستحي هؤلاء الذين يريدون أنْ تكون لهم الخيَرَةُ دون اللّه؟ سبحان اللّه!، وألا يستحي هؤلاء الذين يبغضون رسولَ اللّه ﷺ؟ سبحان اللّه!

سرُّ إضافةِ التّسبيح لاسم الله:

إبـرازُ استحقاقِ اللـه التّـنـزيـهَ بذاته التي لها صفاتُ الجلال والـجـمـال والكمال

أُضيفَ ﴿سُبْحَٰنَ﴾ إلى اسمِه العَلَم بَعْدَ أنْ قال: ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ﴾ دون الإضافة إلى الضّمير، فلم يقل: (سبحانه)؛ لأنَّ اسمَ الجلالةِ مُخْتَصٌّ به تعالى، وهو مُستَحِقٌّ للتَّنْزيهِ بذاته؛ لأنَّ استِحْقاقَ جَميعِ المَحامِدِ ممّا تَضمَّنَه اسمُ الجلالةِ في أصْلِ معناهُ قبْلَ نَقْلِه إلى العَلَميَّةِ[2]، فكان العدولُ عن التّعبير بالضمير الذي يعودُ إلى لفظ

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 7/ 23.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 166.

الرّبوبيّة الذي هو أكثرُ تعلّقًا بالعطاء والإنعام والتّربية إلى الاسم الجليل (اللّه)؛ لإبرازِ صفاتِ الجلالِ والجمالِ والكمالِ، ولاستحقاق اللّه التّنزيه بذاته.

معنى (الواو) في قوله ﴿وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشۡرِكُونَ﴾:

في العطفِ تأكيدٌ على تنزيهِ اللهِ بجميعِ الألفاظِ التي تفيدُ ذلك

(الواو) في قوله تعالى: ﴿وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشۡرِكُونَ﴾ عاطفةٌ، والمعطوفُ عليه قوله تعالى: ﴿سُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ﴾ بجامع أنّ كليهما بيانٌ لعلوِّ مقامِ اللّهِ ﷻ، ولكنّ الأوّلَ تنزيهٌ للّه تعالى عمّا يقولون ويفعلون ممّا لا يليق به، وهو مصدرٌ لفعلٍ محذوف، والثّاني تقديسُ اللّه عمّا أضافَ إليه المشركون من الشّرك، وما تخرّصوه من الكذب والباطل عليه، وهو فعلٌ لمصدرٍ محذوف، أي تقاربُ مَدْلولَيْهما يجعلُ في العطف تأكيدًا على تنزيه اللّه الجامعِ لصفات الكمال بجميع الألفاظ التي تفيدُ ذلك.

دلالة التّعبير بالعلوّ والمُضيّ في قوله ﴿وَتَعَٰلَىٰ﴾:

المتُّعالي سبحانه لا يضرُّه شركُ المشركين

﴿وَتَعَٰلَىٰ﴾ فعلٌ ماضٍ، ومعنى العلوّ: الارتفاع، ويُرادُ به هنا: (التَّعالي عَنْ كلِّ نقصان)، والشّرك نقصٌ لا يليقُ باللّه تعالى؛ لكونه الخالقَ لهذا الكون المدبّر لأمره، والمعنى: سَما وتقدّس وتعاظمَ سبحانَه عن شركِ المشركين، وأنْ يكونَ له شريكٌ؛ بما له من الإحاطة بأوصاف الكمالِ التي ليستْ لغيره، أي فَعَلَ فِعْلَ المبالِغ في التَّنزُّهِ، بما يشيرُ إلى أنّ اللّه لا يضرُّه شِرْكُ المشركين، وإنّما يضرّون أنفسهم.

تحقّقُ تعالي اللهِ وتَعاظُمِهِ عن شِرْكِ المشركين

والتّعبير بالماضي يؤكّدُ تحقّقَ تعالي اللّهِ وتعاظمِه عن شِرْكِ المشركين؛ فهو لا يضرّه شركُهم مهما أوْغلوا فيه واستمرّوا عليه، ويَجعلُ القارئَ والسّامعَ يتأمّلُ في عظمةِ اللّه وعلوِّه على كلِّ ما يشركون به.

معنى (عن) في قوله ﴿عَمَّا﴾:

مجاوزةٌ بُعْدٍ تعزّزُ توحيدَ اللهِ سبحانه

حرف الجرّ (عن) في قوله تعالى: ﴿عَمَّا يُشۡرِكُونَ﴾ يفيدُ المجاوزةَ، وهي أشهر معانيه، أي ارتفعَ عن إشراكهم، أو عن مشاركة الذي يشركونهم، بمعنى البُعد والتّنزيه بما يُعزّز معنى التّوحيد.

معنى (ما) في قوله ﴿عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾:

تـنـزيـهُ الـلـه عـن الـشّـركِ أو الشّركاء

(ما) في قوله تعالى: ﴿عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ مصدريةٌ أي: تعالى عن إشراكهم[1]، أو موصوليّة بتقدير مضاف، أي: عن مشاركةِ الذي يشركونَه به[2]، أو تعالى عن الذي يشركون به[3] من الأصنام والأنداد، التي لا تخلقُ ولا تختارُ شيئًا[4]، والموصوليةُ تفيدُ العمومَ، أي تنزّهَ اللّهُ عن كلِّ الذي يشركون به.

دلالة التّعبير بالإشراك وصياغته مضارعًا في ﴿يُشْرِكُونَ﴾:

ذمُّ الله المشركين وتقريعُهم وبيانُ عـلّـة تـنـزيـهـه سبحانه

وَصَمَ اللّه مَنْ نازَعَه بإسناد الخلق إلى غيره أو في اختيار أنبيائه بالشّرك في قوله ﴿عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾، ولم يقل: (عمّا يفعلون أو يقولون)؛ ذمًّا لهم وتقريعًا على شركهم؛ لأنّ الشّرك أصلُ كلّ شرٍ ومنكرٍ، كما أنّ التّوحيد أصلُ كلِّ خيرٍ ومعروفٍ، وعليه تُبنى الأعمال الصّالحة، فإنّ هُدم التَّوحيد بالشّرك هُدِمَ البناءُ كلّه، ولا خيرَ في عملٍ بعدَه. كما أنّ في التّعبير بالشّرك كذلك إشارةً إلى علّة تنزيه اللّه، والحكم بعلوّه، وكذلك تناسبًا مع السّياق الذي ورد فيه إنكارُ اللّه على المشركين في قوله ﴿فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِيَ﴾ و﴿وَقِيلَ ٱدْعُواْ شُرَكَآءَكُمْ فَدَعَوْهُمْ﴾.

المـبـالـغـةُ في تـنـزيـه الـلـهِ عن كـلّ نقصٍ تـلازمُ إيغالَ المشركين في شركهم حالًا بعد حال

وعبّرَ بصيغة المضارع التي تفيدُ التّجدّد والحدوث؛ للدّلالةِ على استمرارهم في هذا الشّرك، وإيغالهم في إحداثِ أصنافٍ منه حالًا بعد حال، واقترانُ هذه الصّيغة مع التّسبيح والتّقديس يدلُّ على عموم التّنزيه لجلالِ اللّه من كلّ ما يُشركون من الأصنام والأنداد في الحال والاستقبال، أي في كلِّ وقتٍ ظهرَ منهم الإشراكُ وسوءُ الاعتقاد.

---

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 7/ 23، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 166.

(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 7/ 23.

(3) ابن جرير، جامع البيان: 19/ 611.

(4) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 6/ 251.

لطيفة حذفِ مفعول ﴿يُشْرِكُونَ﴾:

تنزيهُ الله تعالى عن كلّ مظاهر الشّرك

حَذَفَ البيانُ القرآنيّ المفعولَ في قوله: ﴿وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾؛ لإفادةِ العموم، أي تنزَّه الله وتعالى عن كلّ نوعٍ ومظهرٍ من مظاهرِ الشّرك، وتعالى عن كلِّ الذين يشركونهم في العبادة من الأصنام والأنداد، التي لا تخلقُ ولا تختارُ.

بلاغة تقييد التَّنزيهِ والتَّرفيعِ بـ (ما يُشْرِكونَ):

لم يَجترِئْ أحَدٌ أنْ يَصِفَ اللهَ بما لا يَليقُ به إلّا أهْلُ الشِّرْكِ

قيّدَ البيانُ القرآنيُّ التَّنزيهَ والتَّرفيعَ بـ (ما يُشْرِكونَ)؛ للإشارةِ إلى قُبْحِ الشّرك والمشركين؛ بأنّه لم يَجترِئْ أحَدٌ أنْ يَصِفَ اللهَ تعالى بما لا يَليقُ به ويَسْتحيلُ عليه إلّا أهْلُ الشِّرْكِ - بزَعْمِهم أنَّ ما نسَبوه إلى اللهِ إنَّما هو كَمالٌ، مِثْلُ اتِّخاذِ الوَلَدِ، أو زعمهم أنَّ الآلهةَ شُفَعاؤُهمْ عندَ اللهِ، أو قولهم في تلبيتهم، كما روى ابن عباس ﷺ، قال: "كان المشركون يقولون: (لَبَّيْكَ لا شَريكَ لَكَ)، فيقول رسولُ اللهِ ﷺ: «وَيْلَكُمْ قَدْ قَدْ»، فَيَقولونَ: إلّا شَريكًا هوَ لَكَ، تَمْلِكُهُ وما مَلَكَ)، يَقولونَ هَذا، وهُمْ يَطوفونَ بِالبَيْتِ"[1]، ولأنّ السّياقَ هو حديثٌ عن بطلانِ الشِّرك وما اتّخذوه من شركاء.

معنى (الواو) في جملة ﴿وَرَبُّكَ يَعْلَمُ﴾:

كمالُ قدرةِ الله لكمالِ علمه المحيط

الواو في قوله تعالى: ﴿وَرَبُّكَ يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ عاطفةٌ، والمعطوفُ عليه قوله تعالى: ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُ﴾، أيْ هو خالِقُهُم ومُرَكِّبُهُم على النِّظامِ الَّذي تَصْدُرُ عنه الأفعالُ والاعتقاداتُ فيكونون مستعدّين لقَبولِ الخير والشّرّ، وتغليبِ أحدهما على الآخر اعتقادًا وعملًا، وهو يعلمُ ما تُخفيه نفوسهم وما يعلنونه من أقوالهم وأفعالهم، فبِحَسَبِ ما يَعْلَمُ منهم يختارُهم ويُجازيهم؛ فحَصَل بهذا إيماءٌ إلى عِلَّةِ الاخْتيارِ، وإلى

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 166، والحديث أخرجه مسلم في صحيحه، حديث رقم: (1185).

الوَعْدِ والوَعيدِ، وهذا مُنتَهَى الإيجازِ[1]، أيْ أنَّ اختيارَ من يختارُ منهم للإيمانِ به على عِلْمٍ منه بسرائرِ أمورهم وبواديها، وأنّه يختارُ للخيرِ أهلَه، فيوفّقهم له، ويولي الشّر أهله، ويخلّيهم وإيّاه[2].

فائدة مجيء لفظ الرّبوبيّة وإضافته إلى ضميره النبيّ:

إعـلانُ اللـهِ عنايته برسولِ الله تطمينٌ له ممّا يلاقيه من عداوةٍ خفيةٍ أو ظاهرة

في إحْضارِ الجلالةِ بعنوان ﴿وَرَبُّكَ﴾ إيماءٌ إلى أنَّ ممّا تُكِنُّهُ صُدورُهُم بُغْضَ محمَّدٍ ﷺ[3]، ولذلك عبّرَ البيان القرآنيّ بلفظِ الرّبوبيّة (رَبُّكَ) الذي يدلُّ على الملكِ والتّربيةِ والرّعايةِ والعنايةِ، وأضافَهُ إلى ضميرِ النبيّ ﷺ؛ تسليةً له، وتخفيفًا عنه، وأنّه في عنايةِ اللّهِ وحمايتِه وإحسانِه، فهو "المحسِنُ إليك المتولّي لتربيتك"[4]؛ بحمايتِك مِنْ كيدِ الكافرين الذين كفروا بنهجِك وشريعتِك[5]، بما يومئُ بتوبيخِهم؛ لكفرِهم بنهجٍ أتى به رسولُ اللّهِ مِنْ عنْدِ ربّه.

دلالة خطاب المفرد في ﴿وَرَبُّكَ﴾:

خطابُ تكريمٍ للنّبيّ ﷺ وتشريفٍ له وتعريضٍ بالمشركين

عبّرَ البيانُ القرآنيُّ بخطابِ المفردِ في ﴿وَرَبُّكَ﴾، ولم يقلْ: (وربُّكم)؛ ليكونَ الخطابُ للنَّبي ﷺ لا للمشركين؛ تكريمًا للنبيّ ﷺ، وتشريفًا له، وتعريضًا بالمشركين.

نكتة تقديم الاسم على الخبر الفعلي في ﴿وَرَبُّكَ يَعْلَمُ﴾:

عِلْمُ اللهِ لمكنوناتِ النَّفسِ وما تُعلنُه مقصورٌ على اللهِ لا يستطيعُه أحدٌ

في تقديمِ المسند إليه (رَبُّكَ) على خبرِه الفعلي ﴿يَعْلَمُ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَرَبُّكَ يَعْلَمُ﴾ قصرٌ وحصرٌ، أي هذا العلم الذي يجتهدون في إخفائه - مستمرّين على ذلك أو يعلنونه - مقصورٌ على الله ولا يستطيعه أحدٌ غيرُه، بما يدلُّ على كمالِ قدرةِ اللّه في الخلق والاختيار، لأنَّ "القدرةَ لا تتمُّ إلا بالعلم"[6]، كما أنّ التَّقديم يحقّقُ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 166.
(2) ابن جرير، جامع البيان: 19/ 612.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 166.
(4) البقاعيّ، نظم الدّرر: 14/ 341.
(5) الشّعراوي، تفسير الشعراوي: 18/ 10993.
(6) البقاعي، نظم الدرر: 14/ 341.

الخبرَ، ويقويّ الحكمَ ويؤكّدُ المعنى، وذلك لتكرارِ الإسناد؛ ولو قال: (ويعلَمُ ربّك) لما تحقّق هذا التّكرار، فكأنّ الحكَمَ هنا ذُكر مرّتين.

دلالة التّعبير بالعِلْم وصياغته مضارعًا في ﴿يَعْلَمُ﴾:

إحاطتُه سبحانه بكلِّ شيءٍ دليلٌ على حقيّةِ اختيارِه لكلِّ شيءٍ

وَصْفُ اللّهِ سبحانه بعلمه للأسرارِ والظّواهر، ووصْفُ هذا العِلْم بأنَّه علْمٌ تامٌّ متجددٌ مستمرٌ لا يعزُبُ عنه، ومعلومٌ من الظّواهر والبواطن والبدايات والنّهايات قبل البَدْءِ والمنْتَهى؛ يدلُّ على أنّ صاحبَ هذا العِلْم هو الذي يختارُ لا غيره؛ فإحاطتُه بكلِّ شيءٍ دليلٌ على اختيارِه لكلِّ شيءٍ، أمّا الذي لا يعلمُ ما يُكنُّه أخوه في صدره، بل ولا عاقبةَ ما يُظهره آخرُ إلى جنبه، فكيف يَصِحُّ منه الاختيار، أو تكون له خيَرَةٌ في شَيءٍ؟![1]، وفيه كذلك وعيدٌ للمشركين وتنبيهٌ لهم؛ ليكونوا على حَذَرٍ في ما يُسرّون وما يعلنون[2]، وفيه تطمينٌ للنبيّ ﷺ[3].

معنى ﴿مَا﴾ في جملة ﴿مَا تُكِنُّ﴾:

عِلْمُهُ بكلِّ ما تُكنُّهُ الصّدور دليلٌ على صحّةِ اختيارِه

﴿مَا﴾ في قوله تعالى: ﴿وَرَبُّكَ يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ﴾ موصوليّةٌ بمعنى الذي، تفيدُ العمومَ، أي: ربُّك المحسنُ لك بالرّعاية والحفظ يعلمُ كلَّ ما تضمره صدورُ المشركين، بما يُعدُّ من الأدلّة على صحّة اختياره، ويؤمنُ بتخويفهم؛ فاللّهُ يعلمُ كلَّ ما اجتهدوا في إخفائه، وبالمقابل يومنُ بتطمينِ النبيّ ﷺ والمؤمنين.

سرُّ التّعبير بالكِنِّ وصياغتُه مضارعًا في ﴿تُكِنُّ﴾:

عِلْمُ اللهِ عظيمٌ في شمولِه وإحاطتِه فلا يخفى عليه شيءٌ مهما بولغ في إخفائه

عبّر النّظمُ الحكيمُ بالكِنِّ دونَ الإخفاءِ في قوله تعالى: ﴿يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ﴾؛ للدّلالةِ على عظيم عِلْمِ اللّه وسعته وشموله، فلا يخفى عليه شيءٌ مهما حاول الإنسانُ أنْ يبالغَ في إخفاءِ ما في نفسه؛ لأنَّ الكنَّ ليس مجردَ إخفاءِ الشّيء، وإنّما يزيدُ على الإخفاءِ بدلالاتٍ

(1) أبو بكر الجزائري، أيسر التّفاسير: 4/ 93.
(2) الماتريدي، تأويلات أهل السنّة: 8/ 191.
(3) الشّعراوي، تفسير الشعراوي: 18/ 10997.

أخرى؛ فهو إخفاءُ الشّيءِ مع صيانةٍ ووقايةٍ وحفظٍ وسترٍ؛ لكي لا يَظْهر[1]، يقال: "كننتُ الشّيءَ: إذا صُنْتَهُ"[2]، فاللّهُ سبحانه يعلمُ ما تخفي صدورهم مهما اجتهدوا في عدمِ إظهاره، واستمروا على هذا الاجتهادِ، وجدّدوا حدوثَه، وهذا سرُّ التّعبير بصيغةِ المضارعِ الذي يفيدُ الحدوثَ والتّجدّدَ.

نكتة الإطناب بذكر الصّدور في الآية:

التّركيزُ على ما تكنّهُ صدورُ المشركين مِنْ عداوةٍ وبغضاءَ للنّبيّ ﷺ

أصلُ الكلام: واللّهُ يعلمُ ما تُكنّون وما تعلنون؛ ولكنّ لمّا كان السّياقُ والمقامُ حولَ عداوتهم للنّبي ﷺ، وقولهم الذي حكاه اللّه تعالى: ﴿وَقَالُواْ لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴿٣١﴾﴾ [الزخرف: 31]، عبّرَ بقولِه ﴿مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ﴾ أي من عداوةٍ ومن بغضاءَ، ولو عبر بقوله (ما تُكنّون) لشملَ المعنى ما يكنّون في أذهانهم وعقولهم أو وجدانهم، أي قصدَ البيانُ القرآنيُّ التركيزَ على عداوتهم للنّبي ﷺ بإسنادِ الكنِّ إلى الصّدورِ.

دلالة المجاز المرسل في لفظ ﴿صُدُورُهُمْ﴾:

ترهيبٌ للمشركين أنْ يحملوا في صدورهم ما يكون وبالًا عليهم وترغيبُهُم بتطهيرها

معنى قوله تعالى ﴿تُكِنُّ صُدُورُهُمْ﴾: يُكنّون في صدورِهم عداوتهم للنّبيّ ﷺ ونحو ذلك[3]، أي ذَكَرَ صدورَ المشركين وأرادَ بواطنها من الحقدِ والكراهيةِ وغير ذلك، وهذا مجازٌ مرسلٌ، علاقتُه الحاليّة؛ إذْ ذكرَ المحلَّ وأرادَ الحالَّ فيه، وإضافةُ الأمورِ النّفسيّة إلى الصّدر أو القلب معروفةٌ في اللغةِ، والغرضُ من ذلك زيادةُ التّرهيب، لنزع ما في صدورهم من الشّرك حتى لا يكون وبالًا عليهم، ومضاعفةُ التّرغيبِ في تطهيرِ الباطن؛ ليكونَ محلًّا صالحًا للتّوحيد، ودافعًا لصالحِ الأعمال.

(1) الرّاغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب: (كنّ).
(2) ابن جرير، جامع البيان: 19/ 611.
(3) الخفاجيّ، عناية القاضي وكفاية الراضي: 7/ 83.

دلالة التّعبير بالصدور دون القلوب في ﴿تُكِنُّ صُدُورُهُمْ﴾:

شـدّةُ العـداوةِ التـي يُكنّهـا الكافرون للنبيّ ﷺ

عبّر البيانُ القرآنيُّ بالصّدور دون القلوب من حيثُ كونُها محتويةً عليها[1]؛ للإشارة إلى شدّةِ عداوة الكافرين للنبيّ ﷺ، التي كأنّها لم تَعُدْ مستقرّةً في قلوبهم، وإنّما خرجتْ منه حتى وصلتْ صدورَهم، وظهرتْ عليها آثارُ هذه العداوةِ من اضطرابٍ وخلجاتٍ؛ لأنّ الصّدرَ هو أعلى مقدَّم كلِّ شيء وأولُه[2]، ولأنَّ الانفعالاتِ النّفسانيّة وتردّدات التّفكير، ونيّاتِ النّفوس - كلّها يُشْعَرُ لها بحركاتٍ في الصّدور.

مرجع الضمير (هم) في ﴿صُدُورُهُمْ﴾:

تـخـويـفُ المـشـركـين وتطمينُ النّبي والمؤمنين بعِلْمِ الله لمكنوناتِ الصّدورِ

مرجعُ الضميرِ (هم) في قوله ﴿صُدُورُهُمْ﴾ إمّا عائدٌ إلى ﴿مَا﴾ مِنْ قولِه ﴿يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ﴾ باعتبارِ معناها، أيْ: ما تُكِنُّ صُدورُ خلقه وما يُعلِنونَ[3]، وحيثُ أُجريَتْ عليهِمْ ضَمائرُ العُقلاءِ، فَقَدْ تَعيَّنَ أنَّ المَقصودَ البَشَرُ مِنَ المَخْلوقاتِ، وهمُ المَقصودُ مِنَ العُمومِ في ما يَشاءُ؛ فبِحَسَبِ ما يَعْلَمُ منهم يختارُهم ويُجازيهم[4]. أو عائدٌ إلى المشركين، والمعنى: ما تُكِنُّ صُدورُهُمْ من عداوةِ رسولِ الله وحسدِه وما يُعْلِنونَ من مطاعنهم فيه[5]، ويؤيّده كون السّياق والمقام حولَ عداوتهم للنّبي ﷺ، وقولهم الذي حكاه الله تعالى: ﴿وَقَالُواْ لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴿٣١﴾﴾ [الزخرف: 31].

وفائدةُ الإضافة في الحالين تخويفُ المشركين، وتطمينُ النبيّ ﷺ والمؤمنين بأنّ اللّهَ لا تخفى عليه خافيةٌ؛ ممّا تضمرهُ صدورُ الخلق جميعًا، وخصوصًا صدور المشركين من عداوةٍ وكيدٍ للحقِّ وأهله.

(1) ابن عطية، المحرّر الوجيز: 4/ 296.
(2) الزّمخشري، أساس البلاغة: (صدر).
(3) ابن جرير، جامع البيان: 19/ 611.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 166.
(5) الزّمخشريّ، الكشّاف: 3/ 428.

نكتة تقديم ما تكنّه صدورهم على ما يعلنون:

في الترقّي من الإخفاءِ إلى الإعلان تطمينٌ للنَّبي ﷺ وتخويفٌ للمشركين

قدَّمَ النّظمُ الحكيمُ علمَ اللهِ لِما تكنّهُ صدورُ الخلقِ أو صدورُ المشركين على ما يعلنونه؛ لكونِ العلمِ به والإخبارِ به أهمَّ[1]، مراعاةً لشدّةِ خطورته على النّبي ﷺ، ولكونِه أدلَّ على قدرةِ اللهِ وعلمه المحيط، ولكونِ المبدأ هو ما تكنّه الصّدور قبْلَ أنْ تُعلنه، بما يومئُ بعلمِه المحيط الذي يعلمُ الشّيء قبْل ظهوره، وفي ذلك كلِّه زيادةٌ في تطمينِ النّبي ﷺ من قِبَلِ المحسنِ له، المتولّي تربيتَه وحمايتَه، وترهيبٌ للمشركين. كما أنّ في التّقديمِ مراعاةً للفاصلةِ القرآنيّة في الآياتِ.

معنى (الواو) في قوله ﴿وَمَا يُعْلِنُونَ﴾:

من كمالِ عِلْمِ اللهِ جمعُه بين العلمِ بسرائرِ عباده وظواهرِهم

الواو في قوله تعالى: ﴿وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ عاطفةٌ، والمعطوفُ عليه ﴿يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ﴾؛ للدّلالةِ على أنّه سبحانه يعلمُ من عبادِه السّرائرَ والظّواهرَ، ويصطفي لنفسه، ويختارُ لطاعته مَنْ قَدْ عَلِمَ منْه السّريرةَ الصّالحةَ، والعلانيةَ الرّضيَّة[2]، وفي هذا دلالةٌ على كمالِ عِلْمِ اللهِ وكمالِ قدرته.

دلالة تكرار (ما) في قوله ﴿مَا تُكِنُّ﴾ و﴿وَمَا يُعْلِنُونَ﴾:

تأكيدُ شمولِ وإحاطةِ علمِ اللهِ دليلٌ على عظمةِ هذا العلم

كرَّرَ البيانُ القرآنيُّ كلمة (ما) في قوله تعالى: ﴿يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ ولم يقل: (يعلم ما تكن صدورهم ويعلنون)؛ تأكيدًا وتقريرًا لشمولِ إحاطةِ علم اللهِ لكلِّ ما تكنّه صدورُهم، ولكلِّ ما يعلنونه، بما يدلُّ على عظمةِ هذا العلم الشّامل، ولإظهارِ فَصْلِ كلا الأمرين المتقابلين - الكِنّ والإعلان - عن بعضهما، بما يؤكّد كذلك شمولَ عِلْمِه سبحانه.

نكتة التّصريح بذكر علم الإعلان:

التّنبيهُ على أنّ عِلْمَ اللهِ بما خَفي وما أُعْلن سيّان

لم يكتفِ البيانُ القرآنيُّ بذكرِ عِلْمِ اللهِ لِما تُخفي صدورهم، وإنّما

(1) القونويّ وابن التّمجيد، حاشيتان على تفسير البيضاوي: 14/ 562.
(2) ابن جرير، جامع البيان: 19/ 611.

صرَّح بذكر علمه سبحانه لِما يعلنون؛ للتّنبيه على أنّ علمه تَعالَى بما خَفي وما أُعْلِنَ سيّان؛ لأنَّ الإخفاءَ والإعلانَ بالنسبةِ إلى المخلوق، أما الخالق: ﴿لَا يَخۡفَىٰ عَلَيۡهِ شَيۡءٞ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ ۝٥﴾ [آل عمران: 5][1]، ولأنّ عِلْمَ الخَفيّ ربما لا يستلزمُ عِلْمَ الجَليّ؛ إمّا لبُعدٍ أو لِغَطٍ أو اختلاطِ أصواتٍ يمنعُ تمييزَ بعضِه عن بعض أو غير ذلك[2]، وتحقيقًا لبلاغةِ الطّباق في الآيةِ التي تدلُّ على كمالِ عِلْمِ اللّه تعالى.

دلالة التّعبير بالإعلان وصياغته مضارعًا في ﴿يُعۡلِنُونَ﴾:

مبالغةٌ في بيانِ عظيمِ علمِ اللهِ في شمولِه وإحاطتِه لما يعلنونَه بألسنتهم وجوارحهم

عبّر النّظمُ الحكيمُ بالإعلانِ دون الجهرِ في قوله تعالى: ﴿يَعۡلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمۡ وَمَا يُعۡلِنُونَ﴾؛ للدّلالةِ على عظيم علم اللّه وسعته وشموله؛ فعلمُه لا يقتصرُ على ما جُهر به، أي رُفع فيه الصّوتُ، وإنّما يشملُ كلَّ ما كان خلاف الكتمان والإسرار، سواءٌ رُفع فيه الصّوت أم لم يُرفع، أو كان بصوتٍ أو بغير صوتٍ، أو كان بالأفعال أو الأقوال، أو كان في المعاني أو الأعيان، وإنْ كانَ أكثرَ ما يُقال في المعاني[3]، ولذا ناسبَ السّياقَ الذي يتحدّث عن معاني ومعتقداتٍ يجتهدونَ ويبالغون في إخفائها، فاللّهُ سبحانه يعلمُ ما يعلنون به من معانٍ وأفعالٍ وأقوالٍ جهروا بها أم لم يجهروا، ومهما تجدّد منهم هذا الإعلان واستمرّ، بما يؤكّدُ عظيمَ سعةِ علمه ﷻ، ولذا أتى بصيغةِ المضارع التي تفيدُ الحدوث والتجدّد.

بلاغة الطّباق بين ﴿تُكِنُّ﴾، ﴿يُعۡلِنُونَ﴾:

كمالُ علمِ اللهِ المحيطِ الذي يشملُ كلَّ شيءٍ ممّا أكنّوه أو أعلنوه

استعمالُ بلاغة الطّباق بالجمع بين لفظين متقابلين في المعنى، هما: ﴿تُكِنُّ صُدُورُهُمۡ﴾ و﴿يُعۡلِنُونَ﴾ يزيدُ الكلامَ حُسْنًا، ويدلُّ على كمالِ علمِ اللّهِ المحيط الذي يشملُ كلّ شيءٍ، سواءٌ مكنوناتِ

(1) القونويّ وابن التّمجيد، حاشيتان على تفسير البيضاوي: 14/ 562.
(2) الخطيب الشّربيني، السّراج المنير: 3/ 114.
(3) الرّاغب، المفردات: (علن).

صدورهم أو ما أعلنوه، تعليمًا لهم بسعةِ علم اللّه، وردعًا لهم عن شركهم، وتطمينًا للنبيّ ﷺ، وتثبيتًا له؛ فاللّهُ يعلمُ كلَّ شيءٍ من خلقه؛ يعلمُ أحوالَهم كلّها وأسرارَهم كلّها، وخبايا صدورهم، وما يسرّون وما يعلنون سواءٌ بسواء.

حذف مفعول ﴿يُعْلِنُونَ﴾:

عـلـمُ الـلـهِ الشّاملِ أحاطَ بكلِّ ما يُعلنونه من مطاعنَ في النَّبيّ ﷺ

حُذفَ مفعولُ ﴿يُعْلِنُونَ﴾؛ لأنَّه مفهومٌ من حالهم، وقد ذكرَ القرآن ما كانوا يقولون في رسول اللّه ﷺ من شاعرٍ أو كاهنٍ أو ساحرٍ. أو مفهومٌ من السّياق، والمعنى: وما يعلنون من مطاعنهم فيه بقولهم: هلا اختيرَ عليه غيرُه في النّبوّة. أو حُذِفَ لإفادةِ عموم ذلك كلِّه، بما يكون فيه تسليةٌ لرسول اللّه ﷺ.

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

المشيئة والإرادة:

المشيئةُ من الله مقتضيةٌ وجودَ الشّيء والإرادةُ منه لا تقتضي وجودَ المُراد لا محالة

وإنْ كان أكثرُ أهلِ اللغة والمتكلّمين لم يفرّقوا بين المشيئة والإرادة[1]؛ إلا أنّ بعضهم ذكر فروقًا بينهما على النحو الآتي:

المشيئةُ في اللغة الإيجادُ، والإرادةُ: طَلَبٌ[2]، وأصلُ المشيئةِ: إيجادُ الشّيء وإصابتُه، فالمشيئةُ من اللّه تعالى إيجاده، ومن النّاس الإصابة، فالمشيئةُ من اللّه مقتضية وجودَ الشّيء، والإرادةُ منه لا تقتضي وجودَ المرادِ لا محالة[3]، وأيضًا الإرادَة تكون لِما تراخى وقته ولِما لا يتراخى، والمشيئةُ لِما لم يتراخَ وقته، فالإرادةُ أعمُّ من المشيئة من هذا الوجه. وقيل: المشيئةُ قبل الإرادة، فالإرادةُ هي العزمُ على الفعل، أو التركُ بعد تصوّرِ الغايةِ المترتّبةِ عليه من خيرٍ، أو نفعٍ، أو لذّةٍ ونحو ذلك، والمشيئةُ ابتداءُ العزمِ على الفعل، فإنّك ربّما شئتَ

(1) الجوهريّ، الصحاح، والرّاغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب، والزّبيدي، تاج العروس: (شيء).
(2) الزّبيدي، تاج العروس: (شيأ).
(3) الرّاغب، المفردات، والسّمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (شيأ).

شيئًا ولا تريده، لمانعٍ عقلي أو شرعي، وأمّا الارادةُ فمتى حصلتْ صدرَ الفعلُ لا محالة، وإرادةُ اللّهِ الفعلَ لا غير، بقول: كنْ فيكون[1].

الاختيارُ والاصطفاء:

اختـيـارُ اللـهِ تعالى للأفضلِ والأصلحِ لخلقه يـتـوافـقُ مع حكمتهِ المطلقةِ وعلمه الواسع

الاختيارُ من الخير، ويدلّ في أصلهِ على العطفِ والميل، وخلافِ الشرّ[2]، واختاره: انْتَقاهُ، واختارَ الشّيءَ على غيرهِ فضّلهُ عليه[3]، والاختيارُ: أخذُ ما يراه خيرًا، وطلبُ ما هو خيرٌ فعله، وفي عُرف الفقهاءِ والمتكلّمين هو ضدّ الإكراه، والمختارُ هو ضدّ المكروه[4]. وأمّا الاصطفاءُ: فهو من الصّفوِ، ويدلُّ في أصله على خُلوصٍ من كلّ شَوْبٍ[5]، وصَفوةُ الشّيء ما صفا منه وخلصَ، ومحمدٌ ﷺ صفوةُ اللّهِ من خلقهِ ومصطفاه، أي: خالصهُ ومختاره، واصطفاهُ: استخلصه[6]، وكأنّه أخذه؛ لأنّه أصفَى جِنْسه أو أجوده[7]. إذن: الاختيارُ هو أخذُ ما يراه خيرًا وانتقاؤه وتفضيله على غيره، والاصطفاءُ هو تخليصُ من اختاره من كلّ شائبة.

وإيثارُ التّعبير بلفظ الاختيار في الآية؛ للتّناسبِ مع الخلق والمشيئة والعموم في الآية؛ فهو سبحانه بعلمه الواسع وحكمته المطلقة يختارُ الأفضلَ والأصلحَ من خلقه؛ من الأمورِ والأشخاص والأماكن؛ أي يختارُ ما يراهُ خيرًا لخلقه في كلّ شيء، ومن يراه خيرًا لحملِ رسالته ولتبليغِ دعوته.

الكِنّ والإخفاء:

الـكِـنُّ أبـلـغُ وأوسـعُ دلالـةً مـن الإخـفـاءِ ويـتـنـاسـبُ مع علمِ اللهِ الواسع

يشتركُ الكنُّ والإخفاءُ بمعنى السَّترِ والتّغطية؛ فالإخفاءُ هو سترُ

(1) العسكريّ، الفروق اللغوية، ص: 35.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (خير).
(3) الزّبيدي، تاج العروس، والمعجم الوسيط: (خير).
(4) الرّاغب، المفردات، والسّمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (خير).
(5) ابن فارس، مقاييس اللغة: (صفو).
(6) الرّازي، مختار الصّحاح، والزّبيدي، تاج العروس: (صفا).
(7) جبل، المعجم الاشتقاقي: (صفو).

الشّيء وتغطيتُه، ويُقابَلُ به الإبداءُ والإعلان[1]، وأخْفَيْتُ الشّيءَ: سَتَرْتُه وكتَمْتُه[2]، وأمّا الكنّ: ففيه معانٍ إضافيّة على الإخفاء؛ فالكنُّ: ما يُحفظ فيه الشّيء، والكنُّ: وِقاءُ كُلِّ شيءٍ وسِتْرُه، وكَنَنْتُ الشّيءَ: سترتُه وصُنْتُه، وأكْنَنْتُ الشَّيْءَ: أخْفَيْتُهُ، وأكنَنْتُه في نَفْسي: أسْرَرْتُه. وقيل: خُصَّ كَنَنْتُ بما يُستر ببيتٍ أو ثوبٍ، وغير ذلك من الأجسام، قال الله تعالى: ﴿كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكْنُونٌ ۝٤٩﴾ [الصافات: 49]، وأكْنَنْتُ: بما يُستَر في النّفس، قال تعالى: ﴿أَوْ أَكْنَنتُمْ فِيٓ أَنفُسِكُمْ﴾ [البقرة: 235]. وقيل: كَنَنْتُه وأكنَنْتُه بِمَعْنًى في الكِنِّ. والكِنانُ: الغطاءُ الذي يُكنُّ فيه الشّيءُ، قال: ﴿وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ﴾ [الأنعام: 25][3]. وقد ناسبَ التّعبيرُ بالكنّ في الآية؛ كونه أبلغَ من الإخفاء وأوسعَ دلالةً؛ إذ فيه معنى الإخفاءِ وزيادة، فاللّهُ سبحانه يعلمُ ما تُخفي صدورهم، وما تحفظهُ داخلها، وما تبالغُ في سَتْرِه وكتمانه.

(1) الرّاغب، المفردات، ص: 290، والسّمين الحلبي، عمدة الحفاظ: 1/ 518.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة، وابن منظور، لسان العرب: (خفي).
(3) الرّاغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب: (كنّ).

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الحادي والأربعون،
سورة القصص من الآية 21 إلى سورة العنكبوت الآية 03
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1446هـ - 2024م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2024م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد الحادي والأربعون، سورة القصص من الآية 21 إلى سورة العنكبوت الآية 03
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2024.
مج. 41 ، 812 صفحة؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-732-92-1
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 41 : المجلد الحادي والأربعون، سورة القصص من الآية 21 إلى سورة العنكبوت الآية 03.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-732-92-1
*
إذن طباعة رقم:MC-03-01-2914887 بتاريخ 2024/12/16م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»